

الإصلاح العسكري عند النخبة المغاربية في القرن 19م

(بين التنظير والتطبيق)

د/ عبد القادر دوحة

جامعة خميس مليانة

انطلاقا من الإطار العام للعلاقة التي سادت بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، والتي طبعها العداء المستمر طيلة قرون عديدة، سيشكل الجيش الأوربي الحديث -لا محالة- مادة دسمة للنخبة المغاربية، ومنطلقا لدعواتها الإصلاحية لتحديد وإصلاح النظم العسكرية في البلاد المغاربية خلال القرن 19م. غير أن ما تجدر الإشارة إليه، هو أن نظرة هؤلاء المغاربة لهذا الجيش لم تكن على نفس الصورة ولا على نفس الفهم، فمنهم من كانت نظرتهم نظرة عابرة في سياق التأريخ للأحداث التاريخية العامة للممالك الأوربية، ومنهم من نظر إليه نظرة ثاقبة يطبعها الحس النقدي فانطلق منها للمناداة بضرورة الإصلاح واقتباس الأنماط الأوربية الحديثة في مجال القتال وعلم الحرب، وقليل منهم من حاول تجسيد ذلك على أرض الواقع في بلاده.

ونحن في مقالنا هذا، سنحاول أن نتعرف على ذلك الدور الحاسم الذي لعبه الاتصال بأوربا وبجيوشها المنظمة والمتطورة (الحملة الفرنسية على مصر أو الحملة الفرنسية على الجزائر)، في تطور الأفكار وتصحيح المفاهيم -اتجاه هذا الجيش- لدى النخبة المغاربية في القرن 19م، التي أصبحت تقبل به، وأن نرصد انعكاسات ذلك فيما بعد على التفكير المغاربي إجمالا، لنصل إلى التعريف بالتجربة الجزائرية الرائدة في هذا المجال (على المستويين النظري والعملي) عند كل من: ابن العنابي⁽¹⁾ والأمير عبد القادر، ضمن الجهد الرامي للتعريف بالخلفية التاريخية التي تؤسس لتواصل بشري إيجابي بين الفضاء المغاربي والبلاد الأوربية.

هذا وحتى يمكن الإلمام بجوانب الموضوع والخروج منه بنظرة متكاملة من جهة، وإبراز التجربة الجزائرية الرائدة من جهة أخرى، فسوف نجمل ذلك في ثلاث نقاط رئيسية: الأولى: ترصد مظاهر إعجاب وانبهار المغاربة ككل والإفصاح عن شعورهم بالجيش الأوربي المتطور في محاولة لفهم أسباب تطوره واستيعاب أسرار قوته، والثانية: تعرف بدعوات الإصلاح العسكري في البلاد المغاربية وخصوصا دعوة ابن العنابي، التي حاولت التوفيق بين النموذج الغربي والتراث العربي الإسلامي. أما الثالثة: فتركز على قيادة الجزائر في تطبيق وتجسيد الأفكار

الإصلاحية في المجال العسكري، من خلال التعرض لما قام به الأمير عبد القادر في هذا المجال، ويتم كل ذلك بالرجوع إلى ما توفر لدينا من المصادر التاريخية الأولية التي كتبت من طرف النخبة المغاربية بشكل عام.

الجيش الأوربي - إعجاب وانهار ثم محاولة فهم واستيعاب

إن قراءة وتحليل محتوى ما تم تدوينه من طرف الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا في القرن 19م في رحلاتهم ومؤلفاتهم التي كتبوها بالمناسبة، لا يخرج عن دائرة الإعجاب والدهشة بالمنجزات الحضارية والعلمية والتقنية، واللامبالاة وعدم الاكتراث من بعض التصرفات والسلوكيات الأخلاقية الغربية، فباستثناء خير الدين التونسي⁽²⁾ ومحمد ابن العنابي الجزائري، لا نكاد نعثر على مؤلف واحد فهم سر وحقيقة التقدم الأوربي، فعمل على دعوة أبناء بلده إلى الحدو حذوه والتخلص من تلك التقاليد البائدة التي ظلت تنخر جسم المجتمع المغربي والعربي طيلة قرون من الزمن. ولنبدأ مثلاً بعرض بعض النماذج من كافة البلاد المغاربية.

بالنسبة للمغرب الأقصى، فقد كانت الهزيمة العسكرية التي ألحقها الفرنسيون بالمغاربة في "إسلي" سنة 1844م⁽³⁾، بمثابة الصدمة التي كسرت السكون المغربي وعجلت بتوجيه بعثة مغربية خاصة إلى الديار الفرنسية من أجل مساءلة الذات ومحاولة فهم ما جرى.

فمحمد الصفار⁽⁴⁾ (كاتب الرحلة) أو إدريس العمراوي⁽⁵⁾ وغيرهما من الرحالة المغاربة الذين كانت لهم فرصة زيارة أوروبا والاحتكاك بمنجزات حضارتها المادية - لا سيما العسكرية منها، قد تمكنوا عن طريق المعاينة الشخصية من إدراك شساعة البون الموجود بين بلادهم المغرب وبين فرنسا، إلا أن ملاحظاتهم حول النظام العسكري في الدول الأوربية التي زاروها، تبقى ملاحظات عابرة في خضم المشاهدات التي يذكرونها، فإذا كانوا قد استشعروا الخطر الذي تحمله الصناعة والقدرة الحربية، فإنهم لم يلفت انتباههم لكيفية امتلاك هذه القوة، ولعل ما استشعروه من خطر عزز لديهم نظرهم العدائية تجاه الآخر.

وفعلاً، فإن قراءة الرحلة المغربية إلى البلاد الأوربية ومحاولة تحليل المشاهدات والانطباعات التي احتوتها، يجعلنا نخلص إلى أن كل الرحالة المغاربة بدون استثناء، ظلوا ملتصقين بالوصف الدقيق والبالغ لمشاهداتهم، دون أن يحاولوا على الإطلاق توجيه أي دعوة للأفراد سواء تعلق الأمر هنا بالسلطان والوزراء وبأعضاء النخبة، أو غيرهم من عامة المغاربة والمسلمين للاقتداء بالأوربيين في أي من السلوكيات الإيجابية ولم يتجرؤوا على المطالبة بتبني أي علم من العلوم التي

قامت على أساسها الحضارة الغربية. فقد ظلوا صامتين أمام كل محاولة تكون الغاية منها الدعوة إلى القيام بإصلاحات أو إلى إحداث التغيير في المغرب. وفي محاولة لتفسير ذلك اتجه الأستاذ خالد بن الصغير إلى الربط بين ذلك وبقاء جل الرحلات التي سجل أصحابها مشاهداتهم في طي الكتمان بعيدا عن العامة، إلى تأثير الثقافة المغربية المحافظة في تلك الفترة التي ترفض التغيير⁽⁶⁾.

وإذا انتقلنا إلى تونس، لنستجلي نظرة رحالة القرن التاسع عشر فيها، فنجدها تختلف قليلا عن نظرة رحالة المغرب الأقصى. فبالإضافة إلى الملاحظات العفوية التي تعبر عن الإعجاب والاندھاش ما يميز النخبة التونسية أهما- بالمقارنة مع النخبة المغربية- منحت هامشا من الحرية، فيما يخص تحليل وتفسير المكونات الفكرية والتقنية الجديدة في أوروبا، وهو ما نلمسه فيما خلفه أصحابها من تآليف ومدونات، وخصوصا محمد السنوسي⁽⁷⁾ وبيرم الخامس⁽⁸⁾، وذلك لتعدد رحلاتهما إلى الأقطار الأوروبية، حيث تظهر جليا صورة أوروبا من خلال ما كتبا، في كتاب " الرحلة الحجازية" و"الاستطلاعات الباريسية للسنوسي، و" صفوة الاعتبار... " بالنسبة لبيرم الخامس، وتضاف إليهما نظرة أحمد ابن أبي الضياف⁽⁹⁾ الذي انتقل هو الآخر إلى فرنسا رفقة المشير أحمد باي⁽¹⁰⁾ وقام بتدوين رحلته التي سماها " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و"عهد الأمان ".

وتكمن خصوصية نظرة الرحالة التونسيين بالنظر إلى رحالة المغرب الأقصى، أن أحمد باي كان في حكمه وتسييره لشؤون الدولة التونسية شبيها بمحمد علي في مصر، حيث كانت له رغبة واضحة في الانفتاح على أوروبا، لذا اتجهت همته إلى إعمار البلاد وتحديث الجيش، وخصوصا إلى فرنسا التي كان يرى فيها رمز التقدم والتحضر.

يقول أحمد بن أبي الضياف بمناسبة تحول أحمد باي في المدن الفرنسية معلقا على ما شاهده من العمران قائلا: « إن السالك في تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصور التقدم في ميادين الحضارة ونتيجة الأمن والأمان...» ويضيف قائلا: «... يود السالك في تلك الطريق السهلة أن المسافة تطول لما يشاهده من حسن الطريق وكثرة المارين...»^(II).

أما بالنسبة لمحمد بيرم الخامس، صاحب " الصفوة " الذي زار مملكتي إيطاليا وفرنسا، وخصص لهما فصلا من رحلته تطرق إلى أسباب تقدمها على غيرها من دول البحر الأبيض المتوسط، مع بيان قوتها الحربية والمالية وانتشار العلوم والمعارف فيهما، ورسوخ العدل

والحرية في أهاليهما. وتظهر روح النقد وقدرة النظر عند هذا الرحالة في قوله: «فجبت بحارا وقفاراً ومدناً وأمصاراً... ورأيت بعين البصر والبصيرة أمور عجيبة وخطيرة...، فلعل الله يفيد بها أهل وطننا وإخواننا المسلمين». (12)

هذا ولم يهتم يريم الخامس بالحديث عن الجيوش الأوروبية وعن النظام العسكري الأوربي عموماً، ولم يتعرض له إلا عندما يكون بصدد تقديم إحصائيات عن مدخول وقوة دولة ما من الدول الأوروبية التي زارها. غير أن يريم وهو يتحدث عن العاصمة باريس وبناءها الشهيرة، استوقفه قوس النصر كواحد من الآثار، والذي أقامه نابليون سنة 1806م تكريماً لـ: «الجيش الأعظم في أعقاب انتصاراته المتعددة». (13)

كما استوقفته أيضاً إحدى الأبنية ذات الطابع العسكري فمضى واصفاً لها فقال: «ليزان فاليد(كذا) Les invalides وهو محل العاجزين من العسكر وبه آثار الأسلحة القديمة منذ عرف السلاح في الدنيا إلى الآن... أدخلوني إليه وأروني جميع جزئيات غرائبه، وحوله قشلة كبيرة للعاجزين من العساكر بالسن أو بالحروب الذين يريدون الإقامة هناك، فزيادة على القيام بجميع ضرورياتهم لهم خدمة، وكل من لا يقدر على المشي تجعل له عجلة صغيرة يحركها بنفسه إن قدر، وإلا جرهما خادماً للترويح في المتره الذي حول ذلك المكان...». (14)

أما بالنسبة للجزائر وعلى خلاف كل من تونس والمغرب الأقصى نجد أن نظرة النخبة الجزائرية إلى أوروبا عموماً، طغت عليها الأجواء الاستعمارية السائدة آنذاك. ففي خضم الحديث عن مجريات الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م، قدم لنا المزارى (15) وصفاً عاماً للجيش الفرنسي الغازي، ابتداءً من تجهيزه من طرف الملك شارل العاشر إلى غاية وصوله إلى مرسى سيدي فرج. ويظهر من خلال اللغة والعبارات التي استعملها في الحديث عن ذلك، انبهاره الشديد من ضخامة وقوة هذا الجيش فنجده يعبر عن ذلك بقوله: «وجهز جيشاً عرمرماً فأرسله لأخذ الجزائر.... ونزلوا به (مرسى سيدي فرج) كأهم الجراد المنتشرة». (16)

وعلى غرار الكثير من الرحالة الذين زاروا الغرب الأوروبي في القرن التاسع عشر ميلادي انبهر محمد السعيد بن علي الشريف (17) صاحب زاوية "شلاطة" ببجاية بتنظيم وترتيب الجيوش الفرنسية، فوصف تفاصيل حضوره لتجمع عسكري كبير للقوات الفرنسية بقوله: «... وفي ذلك اليوم أمور عظيمة لم تقع في أول الزمان ولا في آخره... حضر جمع وافر من عساكر فرنسا ورتبهم ترتيباً حسناً...». (18)

ولم ينس محمد السعيد أن يتوقف عند أحد الجسور الموجودة في قلب العاصمة باريس وهو جسر "استرلتز"، كواحد من المعالم التاريخية المخدلة للانتصارات الكبرى التي حققتها الجيوش الفرنسية العتيقة: «استرلتز... محل ظفر الله به النابوليون الأول بملك النمسا والموسكو...» (19) وإلى جانب رحلة محمد السعيد تستوقفنا رحلات جزائرية أخرى باتجاه فرنسا، مثل رحلة سليمان بن صيام " الرحلة الصيامية " التي قام بها سنة 1852م، و رحلة أحمد ولد قاضي، والتي كانت سنة 1878م " الرحلة الفادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية ". (20) فقد أبدى سليمان بن صيام إعجاباه بالجيش الفرنسي. بمناسبة حضوره لتجمع عسكري أقيم بالعاصمة الفرنسية باريس، ومن خلال قراءة الفقرة الأولى من نص الرحلة يظهر لنا هدف الرحلة جليا «أمرني من يجب علي امتثال أمره وهو والي دائرة الجزائر...» (21). فالهدف إذن هو تنفيذ أمر سياسي. ويقوم هذا الأمر بالضرورة على تجريد الرحالة من احتكامه لرؤيته الخاصة، وإحلال هذه الصورة بصور أخرى تتضمن غرضا سياسيا دقيق المرامي والأهداف.

وبناء على ذلك الهدف، راح سليمان بن صيام يصف لقراء رحلته ما شاهده من أنواع وأصناف وأعداد هذا الجيش إذ يقول: « فوقفنا مع أولئك الجنرالات حتى برز (الملك) في هيئة لم تر العين مثلها، راكبا على فرس لا نظير لها ومع سعادة السلطان المعظم وزير الحرب وكبراء الدولة...ومنذ شرع في السير والمدافع تضرب إلى أن انتهينا إلى محل المهرجان، وجدنا به خلقا لا يحصى والعساكر المختلفة التي لا تعد ولا تحصى ولا تستقصى، مصنفة على مد البصر مع اختلاف ملابسهم وكثرة مدافعهم وشدة حزمهم، وزينة الجيش الراكب على عتاق الخيل... ثم سرنا متعجبين مما رأينا في ذلك اليوم من كثرة الجيش، ولاسيما من الجيش المتدرع بدرع الحديد. وذلك من أعجب ما رأينا». (22)

وربط سليمان بن صيام ما وصلت إليه فرنسا من ضخامة جيوشها وكثرة عدتها وعتادها، بما حققه الفرنسيون من أمن وأمان بفضل العدل الذي انتشر بين الحكام والمحكومين- في إطار الترويج لفكرة نزاهة الفرنسي وعدله- بل وأحيانا طبيته وحسن خلقه..يقول: «واعلم أن ملوك فرنسا لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما قدروا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية، وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعتاد وغير ذلك مما لا يمكن حصره. ويرهان ذلك ما رأيناه من امتثال الرعية بالأوامر الصادرة من أبواب الدولة، فهو أمر ظاهر بين لا يحتاج إلى إقامة دليل، إذ لو لم يكونوا

ممتثلين، لما تم الأمر من محاسنها وعمارها وكثرة مداينها ومراسيها وسفنها وقراها، وآلاف حروبها وعساكرها التي لا تحصى ولا تعد...»⁽²³⁾

والصورة نفسها تتكرر مع أحمد ولد قاضي في "رحلته الفادية" لما تحدث عن رحلته الثالثة إلى فرنسا التي كانت بدعوة من الدولة الفرنسية إلى بعض الأعيان في الولايات الجزائرية، الذين لهم مكانة وفاعلية في مجتمعاتهم تلك لحضور العرض أو المهرجان السنوي للدولة الفرنسية.

وبالرغم من أن ولد قاضي كان قد سبق له زيارة فرنسا مرتين، وشاهد واطلع خلالها على جوانب العظمة والحضارة التي تتمتع بها تلك البلاد، فإنه لا يملك إلا أن يعجب ويدهش بما يرى، فيتحدث عقله ووجدانه بعبارات ملونة بالبهجة والجمال والانبهار والأحلام والأمان.

تختلف اللغة أحيانا بين ابن صيام وولد قاضي حول ماثرات الدهشة والإعجاب لكن المغزى والهدف من القيام بالرحلة هو واحد لا يختلف، هو ترسيخ فكرة الفارق العسكري، بنقل صورة فرنسا القوية المتقدمة والمتطورة إلى الجزائريين، والترويج لفكرة نزاهة الفرنسي وعدله، لقتل عزيمة الجهاد والمقاومة لديهم وتحضيرهم نفسيا لقبول المستعمر، خدمة لفرنسا الاستعمارية. ثم أليس حكام فرنسا هم من دعاهم للقيام بتلك الزيارات؟. ثم أليسوا هم من دفعوا تكاليفها؟، وهياؤا لهم الظروف لذلك ثم كلفوهم بتدوين مشاهداتهم وتعليقاتهم عرضها وتقديمها فيما بعد للجزائريين، في إطار ما سمي ويسمى بالدعاية الحربية؟.

الجيش المغاربي - من الفهم والاستيعاب إلى الدعوة للإصلاح والتجديد.

رغم تأكيدنا على تباين وجهة نظر النخبة المغاربية بصفة عامة في القرن التاسع عشر فيما يخص نظرهم للجيش الأوربي. و تمثل هذا التباين خصوصا في درجة العمق في النظر الذي انعكس على محتوى مؤلفاتهم، بالإضافة إلى ما لعبته الظروف والأجواء السياسية في التأثير على زاوية الرؤية، يضاف إلى ذلك الطابع التقليدي لثقافة هؤلاء.

مع هذا كله، فإنه -وإلى جانب خير الدين التونسي (1822-1890م)، من خلال كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"⁽²⁴⁾، يعتبر محمد بن العنابي الجزائري من خلال

مؤلفه "السعي المحمود..." - في رأينا- أهم من استوعب النظم العسكرية الأوروبية، وفهم حقيقة الحضارة الغربية كلها إبان القرن التاسع عشر.

وقبل الغوص في تحليل الأفكار التي جاء بها ابن العنابي، لا بأس أن نعرض على خير الدين التونسي، فقد زار حوالي عشرين دولة أوروبية، وحلل نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وقارن بينها كما قارن بينها وبين النظم الإسلامية. إضافة إلى ذلك فقد اطلع على كتابات الأوروبيين من فلاسفة و مؤرخين ومفكرين مستعرضا النهضة الأوروبية ومظاهرها المختلفة في تحليل سليم، ذكرا أطوار التمدن تاريخيا، ومعددا أهم المكتشفات والمخترعات من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.⁽²⁵⁾

لكن اختلفت نظرة خير الدين عن غيره من الرحالة والمفكرين، في كونه ركز تركيزا شديدا على النظم السياسية في الممالك الأوروبية واعتبرها أساس تقدم الجوانب الأخرى في تلك المجتمعات، وتكمن خصوصيته أيضا، في كونه الرحالة الوحيد من بين جميع الرحالة العرب في القرن التاسع عشر الذي توفرت له الظروف بحكم ممارسته لشؤون السياسة وتقلده لمختلف الوظائف، لذلك قدم لنا نظرة دقيقة اتسمت بالعمق والتدبير لكل ما لدى الأوروبيين من حضارة تجلت في مختلف المجالات.

لكن بالنسبة للجيش، لم يتعرض له إلا عند حديثه عن مملكة فرنسا -عرضا- وباستعمال جداول إحصائية، أشار إلى القوة الحربية لفرنسا (الجيش البري والبحري)، ثم عرج على النظام القانوني ومؤسساته التي تحكم ذلك الجيش مطلقا عليها اسم: «مجالس العسكر» مستعرضا بعض التفاصيل حول طريقة عملها.⁽²⁶⁾

أما ابن العنابي فقد ذهب في اتجاه آخر يختلف إلى حد ما عن سابقه من الرحالة، فابن العنابي المعاصر للحملة الفرنسية لمصر انصرفت نظراته انصرافا تاما إلى ما جاء به الأوروبيون من جديد في نظام الجيش، إذ أعجب بالجيش البونابرتي المتكامل الدقيق المبني أساسا على علم الحرب -على حد تعبير الدكتور أبو القاسم سعد الله-، والقائم على العمل الجماعي و على الاعتقاد بالنجاح و التطلع إليه.⁽²⁷⁾ ويصف ابن العنابي تنظيم جيوشهم فيقول أن نجاحهم يكون: «... بترتيب أجنادهم على طريقة محكمة ابتدعوها وتدرّبهم على فنون حيل اخترعوها...».⁽²⁸⁾

والأوروبيون في رأي ابن العنابي قد نظموا حندهم ليضروا بالإسلام وأهله. وأمام هذا الخطر الداهم أصبح من المحتم على المسلمين أن يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم، لأن في ذلك مصلحة عليا للدين وللأمة الإسلامية. فقد قال: «..قصد المكيدة للإسلام وأهله، وسعيا في استباحة حماه وتمزيق شمله. فدعت ضرورة الحال إلى استعمال ذلك من قبلهم، والتدريب على ما ألفوا من صنائع وحيلهم».(29)

وقد عرف ابن العنابي الأمور الحربية بأنها كل قوة مادية أو معنوية لردع الأعداء والخط من شأنهم، بل هي كل ما يفيد المسلمين ويرفع من شأن الدين. واعتبر كل ذلك أمرا شرعيا، ولو جاء من الأوروبيين، ولو كان مبتدعا منهم غير معروف لأهل الإسلام. ونورد هنا بعض العبارات من كلامه: « فكل ما يفيد منفعة لها تعلق باعتزاز الدين ورفعة أهله، مما اشتمل عليه النظام المستجد للكفرة من ترتيب العساكر، وتصنيفهم، وحصر أعدادهم، وتعديد قوادهم، وعرفائهم، ولتسويم أصنافهم وكبرائهم، بخصوص لباس أو علامة، وتضييق ملابسهم، وتقصيرها، وتعيين مواقفهم وعملهم، وتخصيص كل فريق براءة أو لواء، ثم تدريبهم على عمل الحرب لتعليمهم كيفية الرمي والطعن والضرب، وغير ذلك مما يقتضيه أمر الحرب من تصنيف وإغارة، واجتماع وافتراق، وإقدام وإحجام، وكر وفر، وركوب ونزول، وظهور وكمون، وتخريض وتثبيت، ورفع صوت وخفضه، ورد منهزم، وحراسة، وغير ذلك مما قد تدعو إليه الحاجة فهو مشروع».(30)

يخاطب ابن العنابي معارضي الإصلاح بقوله: «أن الأوروبيين إذا اخترعوا عتادا حربيا جديدا قد يضر بالمسلمين فما على هؤلاء إلا أن يتعلموه ويحذقوه، بل عليهم أن يسبقوا أصحاب الاختراع أنفسهم. لأنه لا يعقل أن يواجه المسلمون هذا الاختراع الجديد الفتاك بأسلحة بالية غير فعالة. فالتمسك بالتقاليد القديمة في هذا المجال يلحق بالمسلمين الهزيمة والهوان، وهو أمر ضد الدين. يقول في ذلك: «..وأهم (يعني الكفار) إذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائعه أمرا له موقع لا نؤمن من استطالتهم به علينا، لزمنا بذل الوسع في تعلمه وإعداده لهم والاجتهاد في مجاوزتهم فيه».(31)

نخلص الى أنه بالرغم من أن ابن العنابي لم يخف إعجابه بالجيش الأوروبي المنظم والمرتب، إلا أن مكمن الخلاف بينه وبين غيره من أفراد النخبة المغاربية، هو أن إعجاب هؤلاء بمنجزات الأوروبيين العسكرية كان إعجابا عابرا، في حين ذهب ابن العنابي الجزائري

بفكره الثاقب- حسب ما أورده الدكتور أبو القاسم سعد الله- إلى طرح قضية التجديد في العالم الإسلامي قبل غيره، فكيف كان مصير دعوته الإصلاحية يا ترى؟

الجيش الجزائري في عهد الأمير- من الدعوة للإصلاح والتجديد إلى التطبيق

والتجسيد

يبدو أن دعوة ابن العنابي التجديدية فيما يخص الاعتناء بالجيش وترتيبها وصلت إلى الأمير عبد القادر الذي حاول- في سياق قيامه بوضع أسس دولته الجديدة- تجسيد أفكار محمد ابن العنابي على أرض الواقع، حيث حاول أن يبين جيشا عصريا يتماشى مع التطورات الحاصلة في أوروبا، وذلك سواء من حيث الترتيب والتنظيم، أو من حيث العدة والعتاد، رغم اصطدامه بحرب ضروس لم تترك له مجالا واسعا لإنجاز مشروعه العظيم.

وفي هذا الإطار- و بإيعاز من الأمير نفسه- قام كاتبه الخاص- قدور بن رويلة⁽³²⁾ الذي قال فيه الأمير « وأجل من رتب جيشنا، وأقامه إقامة حسنة»⁽³³⁾ بوضع قانون أو نظام عسكري خاص، محكم ودقيق، في ترتيب الجند وتوزيعهم ولبسهم.. تسري أحكامه على جميع أفراد الجيش المحمدي الخاص بدولة الأمير عبد القادر وهو الذي ضمنه في مؤلفه "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب"⁽³⁴⁾

ويعتبر الدكتور سعد الله أنه، استنادا لذلك النظام العسكري أعاد الأمير تنظيم جيشه، بإشراف خبراء أوروبيين، وسماه "الجيش المحمدي"، وهو نفس العنوان الذي اختاره السلطان العثماني محمود الثاني لجيشه الجديد بعد تخلصه من الانكشارية سنة 1826. فأنشأ الأمير جيشا نظاميا ماليا مباشرة له، وهو الجيش الذي يتطوع أفراده للخدمة العسكرية ويتدربون بصرامة ويحصلون على رواتب قارة حسب تصنيفات دقيقة. وكل ذلك كان بدافع تحديث جيشه على الطريقة الأوروبية.⁽³⁵⁾

ولتوفير مناخ جيد لعمل الجيش النظامي، أسس الأمير نظاما إداريا جديدا، فقد قسم الجزائر إلى ثماني ولايات على رأس كل واحدة منها خليفة، يتبعه مجموعة من الأغوات، وكل آغا يتبعه عدد من القواد، و كل قايد يتبعه عددا من الشيوخ. وكل واحد من هؤلاء السابقين حدد له الأمير صلاحيات إدارية وعسكرية وقضائية...⁽³⁶⁾

لقد حافظ الأمير على أسس عديدة ورثها على أسلافه، فأضاف إليها أو عدلها حسب مقتضيات الوضع، وتأثر في ترتيب وتنظيم جيشه إلى حد كبير بالقوانين الأجنبية الفرنسية والتركية، كما أكسبته معاركه ضد القوات الفرنسية خبرة وتجربة دفعته إلى تدريب وحداته على أحدث الأسلحة ووفق المبادئ القتالية الأوروبية. هذا ويمكن حصر أهم معالم التجديد التي أدخلها الأمير عبد القادر على جيشه في النقاط التالية:

I- تقسيم الجيش إلى جيش نظامي وآخر غير نظامي

أ- **الجيش النظامي:** بدأ الأمير تنظيم جيشه بالاستنجد بـ "المتطوعين" من قبائل المخزن، وبعد إرسائه لنواة قاعدية، بدأ في التفكير في إنشاء جيش نظامي محترف يدافع عن حصون الجزائر المستقلة، يتشكل من جملة العسكر الموجودين في الخدمة الفعلية، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام بالإضافة إلى الحرس الأميري:

- **الحياالة:** يتولى قيادة هذا القسم قائد يعينه الأمير، ويشرف على تدريب وتجهيز وحداته بغية إعدادها للقتال، ويتألف من كتائب تضم كل واحدة منها ألف فارس بقيادة آغا، وكل كتيبة منه تنقسم إلى عدد من السرايا يصل إلى عشرين سرية، عدد أفراد الواحدة منها خمسين فارسا بإمرة سياف. أما المجموعة الأخيرة في هذا التقسيم هي الفصيصة، وتتكون من عشرين فارسا، يأمرها رئيس صف ويساعده جاويش، كما عين الأمير لكل ألف و مئة، كاتب، وعلى مجموعة الكتاب الإداريين رئيسا أي باش كاتب.

- **المشاة :** يرأس هذا السلاح قائد يعينه الأمير كذلك، ويقوم بأعباء الإدارة المباشرة على وحداته، فينظمها ويدربها ويسهر على تجهيزها لتنفيذ المهام الموكلة إليها. وينقسم سلاح المشاة هو الآخر إلى عدة كتائب، كل كتيبة تضم ألف جندي يرأسها ضابط برتبة آغا. وهذه الوحدات المقاتلة تنقسم بدورها إلى عشرة سرايا تضم كل واحدة مائة جندي، ويعمل مع كل آغا وسياف كاتب، وأصبح للكتاب رئيسا أي باش كاتب يشرف على صيانة العتاد والغذاء .

- **المدفعية (الطبجية):** يشكل هذا القسم القوة الثالثة في جيش الأمير النظامي، فقد سمي قائده باش طوبجي، يتكون من مائتين وأربعين عنصرا مسؤولين عن عشرين مدفعا، بمعدل اثني عشر جنديا لكل مدفع يرأسهم قائد ونائب له. (37)

- الحرس الأميري: هي مجموعة من خمسمائة جندي يرأسهم آغا، اتخذهم الأمير لحمايته أثناء السير وحراسته ليلا ونهارا وفي القتال وعند التوقف، وكانت أسلحتهم محلاة بالذهب والفضة ومرصعة بالمرجان. (38)

ب- الجيش غير النظامي: شكلت قوات الأمير غير النظامية القسم الأكبر من الجيش، فكانت تسرع للالتحاق بالوحدات النظامية لتقاتل في صفوفها عندما يدق النفير، ثم تعود إلى ديارها فور انتهاء المهمات الموكلة إليها، وجميع عناصر هذا الجيش كانت من القبائل المؤيدة للأمير والموزعة في مختلف أنحاء دولته، واختلف عدده من سنة لأخرى، فبلغ-مثلا- حوالي (83) ألف مقاتل من مشاة وفرسان في سنة 1838م، و (53) ألف في العام الموالي. (39)

العدة والعتاد: إن إدراك الأمير عبد القادر لأهمية العتاد الحربي والذخيرة في حسم المعارك وتحقيق النصر، جعله يحرص أشد الحرص على توفيرها لجيشه بشتى الطرق والوسائل سواء من غنائم الحرب، أو من الهبات التي كانت تصله، كما كان الأمير عندما يوقع هدنة مع الطرف الفرنسي، يشترط فيها شراء معدات عسكرية لجيشه. فالبند الأول من معاهدة ديميشيل (De Michel) نص على حرية شراء المواد الحربية مثل الأسلحة والبارود والكبريت (40)، كما أن البند السابع نص على أن السلطات الفرنسية تمدد بكل نوع من أنواع الأسلحة والذخيرة والمواد الحربية التي قد يحتاج إليها بسعر الشراء. (41)

كان جيش الأمير النظامي مسلحا ببنادق فرنسية أو إنجليزية، وقد حصل على هذه البنادق كغنائم بعد المعارك التي خاضها، أو من الجنود الفرنسيين الفارين، أو بالشراء من المغرب الأقصى الذي كان المصدر الرئيسي لها، وهو ما يشير إليه المؤرخ "إيمري" في قوله: «لقد بقي المغرب مدة طويلة دار الصناعة ومنجم الذهب للأمير»، كما كانت تأتيه بعضها من المدن الفرنسية الساحلية في أوقات الهدنة. (42)

وخلال فترة الهدنة دائما، تعاهد الأمير مع عدد من المهندسين والفنيين الأوروبيين (فرنسيين وغيرهم) لإقامة بعض المصانع لإنتاج السلاح الذي يحتاجه. هذه المصانع، أصبحت بعد مدة و بالاستعانة بمؤلاء الأوروبيين الذين يديرونها، تعمل بإتقان في أهم المدن الخاضعة له، ففي تلمسان كان أحد الاسبانيين يشرف على مصهر المدافع وينتج يوميا اثني عشر مدفعا وستة مدكات مدافع. وكان أحد الفرنسيين الفارين المختصين في علم المعادن، يدعى السيد دي كاس (De Casse) قد أنشأ في مدينة مليانة بعد إسلامه، مصنعا لبنادق وآخر لإنتاج البارود

بمساعدة عمال أوربيين أغلبهم من الهاربين والمساجين، وبالاعتماد على معدن الحديد الذي كان يستخرج من منجم بالقرب من المدينة (منجم زكار).⁽⁴³⁾

كان المصنع يشتغل على نمط الحدادة الكتلانية التي يعتمد نظامها على صهر معدن الحديد في داخل أفران كبيرة، ثم يتم صقله بمطرقة كبيرة تحركها عجلة مائية توضع على مصب الواد خارج البناية. كانت درجة حرارة الأفران تصل إلى 1400 درجة مئوية باستعمال منفاخ مائي لإفراغ الهواء، كانت تصنع به عدة قطع من الأسلحة وخاصة الرماح وحاملات المدافع.⁽⁴⁴⁾

كما عمل الأمير على تحصين ثغور البلاد، فابتنى في الخط الفاصل بين الصحراء حصونا منها: سبدو وسعيدة في الجهة الغربية، وتكدامت وبوغار سيباو و الشفة و طازة في الجهة الشرقية لاستعمالها كمستودعات للسلاح والمسالك. هذا ولقد كان الأمير عبد القادر ينتقل بين هذه التحصينات بسرعة عجيبة أربكت خطة العدو الذي لم يتمكن من اعتقاله طيلة 17 سنة رغم كل ما بذله من جهود في هذا الإطار.

كتب بوجو (Peugeot) يقول: "ينبغي للمرء أن يكون ساحرا ليتنبأ بحركاته، وأن يكون لجنودنا أجنحة للحاق به، فهو ينتقل إلى حيث لا نكون موجودين، أو إلى حيث لم نعد فيه موجودين: هل تعرفون أين تكمن قوته؟ إنها في عدم إمكان العثور عليه، إنها في مساحة الأرض، في حرارة شمس إفريقيا، في انعدام الماء، في حياة الترحال، هنا تكمن قوته، ولا بد لنا من إخضاعه، ويجب القضاء عليه." ⁽⁴⁵⁾

التجنيد والترقية: أدرك الأمير أن طريقة التجنيد الإجباري أيام الأتراك كانت تجربة فاشلة، لتعارضها مع طبيعة الشعب الجزائري، وعدم تألفها والحياة القبلية في الأرياف. لكن ترده في تطبيق التجنيد الإجباري في الدولة، لم يثنه عن عزمه في اللجوء إلى وسيلة أخرى لتحقيق هدفه وهي التجنيد الاختياري. هذا ولقد كانت الصفات الحميدة هي الفيصل في تعيين المسؤولين، كما اشترط في خلفائه ورؤساء جنده التحلي بالشجاعة والجرأة فمضى دعاهم الواجب تعين عليهم الاستجابة لندائه وتحمل الصعاب في سبيله.⁽⁴⁶⁾

أما بالنسبة للترقية في جيش الأمير، فكانت تخضع لشروط محددة منها: أنه لا يرقى أحد في الجيش، مهما كانت رتبته أو اختصاصه إلى رتبة أعلى إلا إذا تحلى بالصفات الحميدة، وأن يتدرج في الترقية في مختلف الرتب الأدنى، وبعد موافقة الأمير. واستثنى من ذلك التدرج

من يحمل الوسام الأميري الحمدي (الشيعة المحمدية)، شرط أن لا يكون هناك سبب آخر يمنعه من الترقية.⁽⁴⁷⁾

الوسام الأميري:⁽⁴⁸⁾ اختار الأمير وساما سماه "الشيعة المحمدية"، ويختلف في مظهره حسب جدارة مستحقه. فهو يتكون من خالص الذهب أو الفضة، وفي وسطه كتبت عبارة "ناصر الدين". ويمنح هذا الوسام مكافأة للمهاجمين الشجعان من أفراد جيشه في الحرب، أو للذين ينقذون أحد رفقاتهم أثناء المعركة. ويعطى أيضا لمن ينقض على عدوه غير آبه بالنتائج أو يصد محاولات تسلل خصمه. أما تقليد هذا الوسام فيعود للأمير، الذي يحضر لهذه الغاية حفلة عسكرية رسمية تعزف فيه الموسيقى. وإذا كان الشخص المعني بعيدا كأن يكون مع أحد الخلفاء فيثبت الخليفة خصلته التي يستوجب بها حمل "الشيعة"، ويخبر به الأمير فيأمر له "بالشيعة" بحسب العمل الذي قام به.⁽⁴⁹⁾

كتب تشرتشل على لسان الأمير يقول: " أن الجندي الذي ينقض على صفوف العدو، فيغلب ويجرد خصمه من السلاح، أو يدعو الجنود للصمود عندما يكونون على وشك الهزيمة، ويمنع بمثاله وحضور عقله وقوع الفشل و الانكسار، سيعلق له الوسام أمام الجيش كله وتعلن بطولته بدق الطبول.⁽⁵⁰⁾

الألبسة: تحدث تشرتشل بإسهاب عن كسوة الجندي، التي كانت تتكون من سروال أزرق داكن مع حمرة، ومن معطف بني له غطاء الرأس وطاقيّة وشاش صغيرين، وكان راتبه يبلغ تسع فرنكات شهريا، أما على الكم الأيمن لكل قائد خيطة العبارة التالية: "الصبر والمثابرة مفتاح النصر"، وعلى الكم الأيسر: "لا اله إلا الله محمد رسول الله"، وعلى الكتف الأيمن للأغا بدل الشارة العسكرية (عند الأوربيين) كتبت العبارة التالية: "لا شيء يفيد كالورع و الشجاعة"، وعلى الكتف الأيسر: "لا شيء يضر كالجهل والعصيان"، وكان الصبايحية أو الفرسان يحملون عبارة "ثق في الله ورسوله-جاهد وانتصر وكان المدفعيون يحملون عبارة: "أنا لا أوجه الطلقة بل الله هو الذي يوجهها".⁽⁵¹⁾

التدريب: عنى الأمير عبد القادر بتدريب جنده على أساليب القتال، واستقدم لهذه الغاية مدرّبين من تونس وطرابلس الغرب، وألحق بقواته مجموعة من الفارين الفرنسيين الذين درسوا الخطط التي تلقوها ونفذوها عمليا في جيشهم. وفرض الأمير على عناصره طاعة مدرّبيهم والانتباه التام أثناء التعليم، ليكتسبوا معلومات تؤهلهم محاربة الجيش الفرنسي وفرض النظام

الداخلي، وحثهم على التقيد بقواعد السلوك وحسن التصرف مع الجميع من رؤساء ومدربين، الذين أعطوهم الكثير من المعلومات العسكرية وافهموهم المبادئ القتالية وكيفية استعمالها عند الضرورة. (52)

ويتعرض التلميذ الجندي إلى أشد العقوبات إذا لم يتابع التعليم بانتظام، كما فرض على أفراد العسكر المحمدي أن يتعلموا دروس الأسلحة الخاصة بالبندقية بغية استعمالها بسهولة وفي جميع الحالات. وشدد على حفظ مبادئ تفكيك وتركيب أسلحتهم، وكيفية التسديد عليها بخدقة تامة لإصابة الهدف عند مشاهدته، أما الفرسان النظاميون، فأعفوا من التدريب، واعتمدوا على تقاليدهم الحربية متبعين حرب المعارك الفردية والكماش والمفاجآت. (53)

إقامة العسكر ورحيله: اتخذ معسكر جيش الأمير شكلا شبه دائري، ثبت على جانبي مدخله الرئيسي مدفعان، في مقدمته خيمة قائد سلاح المدفعية تقابلها خيمة رئيس الأطباء، وفي وسطه خيمة الأمير حيث تعقد الجلسات لمناقشة المسائل المهمة واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها، ويضم المعسكر سوقا تجاريا ومقاهي ودكاكين، وتخضع الحياة فيه لقواعد دقيقة، فالخروج منه ليلا من غير إذن تعرض المخالف لأشد العقوبات. وهكذا يبدو المعسكر وحدة متكاملة من الانضباط والنظام حتى بعد رحيله إلى مكان آخر. (54)

قانون القضاء العسكري: لا بد لكل جيش من قوانين تمنع الخروج عن أنظمتهم وهيئاته أو الإضرار بمصالحه والإساءة إلى مقوماته. ويعتبر قانون القضاء العسكري في دولة الأمير من الضوابط التي تؤمن هذه الغاية، فتحدد لجنده نطاق حقوقهم وواجباتهم وتنظم شؤونهم وفقا لما يتوافق مع مصلحة الجيش.

ومن البديهي أن يفرض تنظيم القضاء جزاءات رادعة للمجرم أو المخالف، الذي يشكل خطرا على الجيش ومبرر كيانه، وعلى المجتمع واستقراره، وعلى الدولة وأسسها، وتطبيقا للمبدأ القانوني القائل: " لا يعذر أحد بجمله للقانون " كانت نصوص القانون العسكري تقرأ على الجند مرتين في الشهر، يشتمل قانون القضاء العسكري في جيش الأمير على ما يلي: (55)

أ- أجهزة القضاء العسكري وصلاحياتها: يتألف القضاء العسكري في جيش الأمير من مجلس الشورى الذي تشمل صلاحياته كامل أراضي الإمارة، وهو المرجع الوحيد للبت في

المسائل العسكرية التي تستطيع المحكمة العسكرية الدائمة اتخاذ قرارات بشأنها، ومحكمة عسكرية دائمة تشمل صلاحيتها كافة وحدات الجيش وتنظر في أحكام القضاة المنفردين وتبت فيها، وقضاة منفردون في الكتائب بمعدل قاض واحد في كل كتيبة ومساعدان، أحدهما رئيس مخفر الشرطة العسكرية.⁽⁵⁶⁾

الجرائم العسكرية:

في جرائم التملص من الواجبات العسكرية: نجد التخلف: إذ يعد متخلفا كل شخص يدعى للخدمة في الجيش ولا يلي الدعوة. وكانت عقوبته شهرا كاملا بالإضافة إلى ما يقرره الأمير. أما الفرار من وحدته بدون إذن أو عذر شرعي فيعاقب العسكري على ذلك، بأيام حبس تساوي عدد أيام فراره شرط أن يعود باختياره، ولكن إذا قبض عليه فعقوبته يحددها الأمير.

في الجرائم المخلة بالشرف والواجب: فنجد الإتلاف، ذلك أن كل عسكري يقدم على إتلاف سلاحه أو جزء منه أو يفسده في غير القتال، يعاقب باجتهد السلطان بالإضافة إلى تغريمه بالثمن. كما نجد أيضا الغش، ذلك أن كل آغا أو سيف غش أو حصل على مبالغ مالية بطريقة غير شرعية يعاقب بستين يوم حبس، وكل آغا غش في الخدمة وثبت عليه ذلك، يعاقب بشطب اسمه من الديوان العسكري ويطرده من الجيش.

في الجرائم المخلة بالانضباط العسكري: نجد جريمة رفض الطاعة، التي يعاقب بها كل عسكري يرفض طاعة رؤسائه أو تنفيذ الأوامر التي يتلقاها ما لم يحل دون ذلك سبب شرعي بخمسة عشر يوم حبسا، ويعاقب بالحبس شهرا كاملا كل عسكري يرفض الخروج للقتال بعد سماعه دقة النفير. كما نجد أيضا مخالفة التعليمات العسكرية، مثل التخلف عن التعداد الصباحي أو المسائي، أو ارتداء الجندي للثياب غير المسلمة له من الجيش، أو إطلاق طلقة من السلاح، أو النوم أثناء قيامه بالمراقبة، فهذه المخالفات تتراوح عقوبتها ما بين الحبس من يوم وليلة إلى عشرين يوما حسب نوع المخافة.⁽⁵⁷⁾

الشارات والرتب العسكرية: اختلفت الشارات العسكرية للجنود بين مختلف أقسام جيش الأمير عبد القادر، فبالنسبة لقسم المشاة: ميزت رتبة الآغا أربع علامات من الذهب اثنتان على منكبيه، إحدهما مكتوب عليها كلمتا الشهادة: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

محمدًا رسول الله"، والأخرى حكمة "الصبر مفتاح النصر"، واثنان على صدره بشكل: قمر أو هلال، فذات اليمين مكتوب عليها اسم الجلالة: " لا اله إلا الله" وذات الشمال مكتوب عليها " محمد رسول الله"، بينما يختص السيف بعلامتين من الفضة على شكل سيف، أحدهما: "لا أنفع من التقوى والشجاعة"، والأخرى "ولا أضر من المخالفة وعدم الطاعة". أما في ما يتعلق بقسم الخيالة، فقد تميز رئيس الخيالة (الآغا) بعلامة على منكب من الذهب مكتوب عليها الحديث الشريف: "الخيال معقود بنواصيها"، في حين اختص السيف بعلامة يضعها على عضده الأيمن، مصنوعة من الفضة مكتوب عليها: "أيها المقاتل، احمل تغنم". أما القسم الأخير أي المدفعية: فقد اختص باش طوبجي بعلامة مدفع من الفضة، يضعها على كتفه الأيمن كتب عليها قوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى". (58)

الجهاز الطبي: لم يشكل الأطباء والمرضون جهازًا مستقلًا، بل ألحق كل أربعة منهم بمستشفى متنقل يتبع الوحدات المقاتلة لمعالجة المرضى من العسكريين. وقد خصصت كل ولاية أيضًا طبيبًا واحدًا للإشراف على إدارة مستشفى عاصمتها مقابل راتب ثابت يدفع له من بيت المال.

وهؤلاء الأطباء ليسوا متخصصين في مهنتهم، إنما كانوا يتمتعون بخبرة كافية تؤهلهم معالجة الأمور غير المعقدة كتضميد الجروح وتجبير العظام. وعند حصول أية مشكلة تتعدى معرفتهم، كانوا يستشيرون طبيب العاصمة (أبي عبد الله الزروالي) الشهير بعمله والمتخصص في الطب. وساعده في مهمته أحيانًا، وارنييه (Warnier)، الطبيب الفرنسي بقنصلية وهران مع النقيب دوماس (Daumas).

وقد صمم الأمير على تأسيس مدرسة للطب تشمل عديد الاختصاصات، لكن عمر إمارته القصير جدًا وقلة الأموال في خزينتها حالًا دون تنفيذ حلمه، ولو أتاحت له الظروف تحقيق ذلك لكان فعالًا السباق في هذا الميدان في المغرب العربي كله. (59)

وإذا كان لا بد من خاتمة نخلص إليها في نهاية هذا البحث، نقول: أن الإصلاح العسكري في البلاد المغاربية في القرن 19م، بقي محصورًا في نطاق التنظير فقط، ولم يخرج من تلك الدائرة إلا مع الأمير عبد القادر، الذي يعتبر - في رأينا - رائدًا من رواد التجديد والإصلاح العسكري في القرن التاسع عشر، على اعتبار أنه مثل الشخصية الوحيدة التي فهمت الرسالة التنبؤية والتحذيرية لمحمد بن العنابي، فتلقفت دعوته الإصلاحية التي كانت تنادي

بإصلاح النظم العسكرية في البلدان العربية والإسلامية بما يتمشى و التطورات الحاصلة في جيوش الدول الأوروبية، وحاولت تجسيدها على أرض الواقع. كما يعتبر الأمير عبد القادر الوحيد الذي أدرك أهمية الظاهرة الصناعية في القرن 19م، فعمل على الاستفادة منها لبناء جيش عصري يضاهي الجيوش الأوروبية، والسعي لإرساء النواة الأولى للصناعة الحربية في الجزائر بالاعتماد على خبرات الأسرى والمهاجرين الأوروبيين. وهو ما يجعلنا ننتهي إلى أن الأمير لم يستفد من منجزات الحضارة الأوروبية إلا في مجال التسلح الذي كان في حاجة إليه لتحقيق هدفه من المقاومة، وهو إخراج الفرنسيين من الجزائر.

ويخطئ من يعتقد أن اهتمام الأمير عبد القادر بالجيش، مرده أنه كان يميل إلى الحروب وسفك الدماء كما يدعي البعض، ففي رسالة بعثها إلى الأسقف دوبوش (Debouche) عبر فيها عن هذه الحقيقة: "لعلك اكتشفت أنني لم أولد لكي أكون محاربا، وإنما القدر هو الذي ساقني إلى ذلك"⁽⁶⁰⁾. ولا غرو في ذلك، وهو الذي أحدث ثورة في مجال أنسنة الحروب تجلت من خلال التصرفات والمعاملات الراقية التي عرف بها في تعامله مع الأسرى والنساء الفرنسيين... في مواجهته للجيش الفرنسي... هذه المعاملات شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء وكان لها تأثيراتها العميقة حتى في قواعد القانون الدولي الإنساني الحالي.

الهوامش:

- (1) هو محمد بن محمود بن محمد بن حسن العنابي الجزائري المعروف بابن العنابي (1775-1851م) نسبة إلى مدينة عنابة، فقيه حنفي وكاتب، تولى في الجزائر قضاء الحنفية غير ما مرة، دعا إلى التجديد الإسلامي والإصلاح الاجتماعي والسياسي، له كتاب: «السعي الحمود في نظام الجنود».
- (2) هو خير الدين التونسي (1810/1890م)، شركسي الأصل، قدم إلى تونس سنة 1839م تدرج في المراتب العسكرية حتى وصل سنة 1852م إلى رتبة (جنرال). عين وزيرا للبحر بعد عودته من فرنسا، و شارك في لجنة صياغة قانون عهد الأمان، وترأس المجلس الأكبر. عين بعد ذلك وزيرا أكبر سنة 1873م. وبعد عزله من الوزارة الكبرى سنة 1877م توجه إلى الأستانة بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني فعينه صدرا أعظم للخلافة، توفي سنة 1890م. للمزيد، أنظر:

معجم مشاهير المغاربة، إعداد مجموعة من الأساتذة تحت إشراف الدكتور بوعمران الشيخ، منشورات جامعة الجزائر 1995، ص ص 202-204.

(3) هي مواجهة عسكرية غير متكافئة تمت فصولها السريعة على مقربة من الحدود المغربية الجزائرية في وادي إسلي سنة 1844م. وسببها أن فرنسا كانت تريد انتزاع اعتراف صريح من سلطان المغرب بوجودها في أرض الجزائر، وأن ترغمه على التعاون معها لتثبيت احتلالها وهدنة القبائل المغربية الموجودة عند الحدود، ومنعها من تقديم المؤازرة إلى أي حركة جزائرية مناوئة للوجود الفرنسي في الجزائر. وفعلا فإن مرارة تلك الهزيمة جعلت المغاربة يثورون ضد سلطانهم، متجهين إلى الأمير عبد القادر ليكون سلطانا عليهم وهو ما نقله شارل هنري تشرشل في كتابه إذ يقول: «..إن السكان المغاربة كانوا يتميزون ويفورون مقاومة من هزيمة جيشهم، وإهانة الفرنسيين لهم أيام الشروط عليهم، والفشل المرير لجميع آمالهم البعيدة. لذلك كانوا بجميع صفوفهم تأثرين ضد العجز والضعف الجبان لسلطانهم، وكلهم طالبوا بعبد القادر سلطانا عليهم». للمزيد راجع:

- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004م، ص 290.

- ثريا براده: الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب 1997، ص ص 33-34.

(4) هو محمد بن عبد الله الصفار التيطواني، زار باريس سنة 1845م، قضى فيها خمسين يوما في إطار بعثة السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن (1823-1859م) إلى الملك فيليب (1830م-1848م)، و كان فقيها وعالما بارزا بتيطوان ، توج عودته برحلته " رحلة الصفار".

(5) هو إدريس بن محمد العمراوي (تـ 1878م)، أرسله السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمن إلى فرنسا وأسبانيا، عام 1859م لمدة 40 يوما استطاع خلالها أن يتغلغل داخل المجتمع الأوربي ويتعرف على العديد من جوانب الحياة فيه. توج سفره برحلة رائعة سماها: «تحفة الملك العزيز إلى مملكة باريز».

(6) خالد بن الصغير: "رحلة الصفار إلى صغير فرنسا 1845م، اكتشاف النص وأبعاد السفارة"، أعمال ندوة: الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين- اكتشاف الذات والآخر، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة 2005، ص 513.

(7) هو محمد بن عثمان بن محمد بن أحمد بن مهنية السنوسي القلعي (1851/ 1900 م)، ولد في بلدة الكاف شمال تونس في أسرة علمية شريفة فقيه وأديب ومؤرخ وأحد رواد النهضة

الفكرية في تونس، درس بجامع الزيتونة. ،تولى عدة وظائف دينية وإدارية، كما عمل محررا بجريدة "الرائد التونسي، له العديد من المؤلفات من بينها " الرحلة الحجازية " و"الاستطلاعات الباريسية".

(8) هو محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن حمو الثالث التونسي، مؤرخ وفتية ورحالة تونسي، ولد سنة 1840م، من جماعة خير الدين، حيث أشرف على جمعية الأحماس منذ عام 1874، كلفه خير الدين أيضا بإدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد الناطقة بلسان الحكومة الإصلاحية. زار مملكتي إيطاليا وفرنسا، ترك رحلة هامة سماها " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار.

(9) هو أبو العباس أحمد بن أبي الضياف (1802 - 1874 م)، سياسي تونسي درس بجامع الزيتونة، سمي الضياف عدلا، أول من كتب للدولة العثمانية باللغة العربية بديوان الإنشاء، حيث انتقل من كاتب السر لدى بعض البليات الى أن سمي وزيرا، كما أرسل في مهمات بالخارج لدى الباب العالي مثلا عام 1831م وعام 1842م اصطحبه أحمد باي في رحلته إلى باريس عام 1846م، تحدث عنها بالتفصيل في كتابه المشهور: " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " .

(10) هو المشير أحمد باي (1837- 1855م)، كان مولعا بالتحديث على النمط الأوروبي، ذهب في حكمه المطلق شوطا بعيدا جعل البلاد التونسية بعد وفاته على شفى أهيار اقتصادي دفعها إلى الاقتراض من أوروبا في سنة 1862، وهي السنة التي تخلى فيها خير الدين عن الوزارة و تفرغ للتأمل و جمع عناصر كتابه.

(II) أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8 أبواب، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط2، الدار العربية للكتاب، الباب السادس، تونس 2004، ص ص 138، 139.

(12) محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأنصار و الأقطار، (جزآن)، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان ، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان 1997م، ص33.

(13) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 69.

(14) المصدر نفسه، ص 74.

(15) هو أبو إسماعيل بن عودة بن الحاج محمد المازري ، يعرف عند الناس في الغرب الجزائري بالأغا المازري. وكان أبوه الحاج محمد المازري قد تولى منصب ووظيفة "الأغا" عند الأمير عبد القادر. من أهم مؤلفاته «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وأسبانيا وفرنسا، إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الذي ألفه في نهاية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر الميلادي.

(I6) ابن عودة الآغا المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وأسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، جزآن، تحقيق ودراسة: يحيى بوعزيز، الطبعة الأولى، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2007م، ج2، ص 79.

(I7) هو محمد السعيد بن علي الشريف الملقب بأبي الفضل، ولد (1214هـ/1796م)، متصوفا و شيخ زاوية و فقيه جزائري، له اهتمام بالتوحيد و التاريخ و علم الفلك و التنجيم، من آثاره: "التعريف بالأخبار المالكيين الأخيار".

(I8) محمد السعيد بن علي الشريف: « الرحلة الحزيرة فيما عاينه ناظمها ببر فرانسفة»، جريدة المبشر، العدد رقم 130، الجلد (1852-1855م) ، بتاريخ 08 رمضان 1269هـ / 15 جوان 1853م ، ص 4.

(I9) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(20) قام الأستاذ خالد زيادة بتحقيق و تقديم هاتين الرحلتين إلى جانب رحلة أخرى للشيخ ابن الفكون القسنطيني و نشرهم في كتاب: ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، لبنان 1979 م.

(21) ابن صيام، المصدر السابق، ص 25.

(22) المصدر نفسه، ص ص 44-45.

(23) المصدر نفسه، ص 41.

(24) طبع الكتاب سنة 1867م في تونس، و ترجم إلى الفرنسية و الإنجليزية و التركية لأهميته. قام الأستاذ المنصف الشنوفي بتحقيقه عن نسخته الأصلية و نشره سنة 1972 م. أعيد طبعه من طرف المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) في جزأين سنة 2000م.

(25) يعتبر بعض الدارسين أن خير الدين هو المؤرخ التونسي الوحيد في القرن التاسع عشر ميلادي، الذي كانت له ثقافة مزدوجة، إذ علاوة على ما اكتسبه من معارف إبان دراسته بالمعهد الحربي، فإنه كان شغوفا بالإطلاع على التراث الفكري و الثقافي الأوروبي. راجع : التيمومي، " مفاهيم الزمن لدى المؤرخين في تونس من القرن الثامن عشر الى 1956م"، المجلة التاريخية المغربية، العددان 65-66، أوت 1992، منشورات سيرمدي، زغوان، تونس.»، ص 110.

(26) التونسي، مصدر سابق، ج I، ص ص 322، 331، 348.

(27) أبو القاسم سعد الله: المفتي الجزائري ابن العنابي، رائد التجديد الإسلامي (1775-1850م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976 ص 60. وأنظر في نفس الموضوع:

- عمر بن قينة: الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى "ابن المقفع وابن العنابي و الكواكبي"، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن 2000م، ص ص 53، 54.

(28) محمد بن محمود ابن العنابي: السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1993، ص 49.

(29) ابن العنابي، مصدر سابق، ص 49.

(30) المصدر نفسه، ص ص 51-52.

(31) نفسه، ص 63.

(32) هو قدور بن محمد بن رويلة (.../1272هـ) ولد بالجزائر العاصمة ونشأ وتعلم بها، كان والده وكيلا على ضريح سيدي عبد الرحمن النعالي قبل الاحتلال الفرنسي. وعند اندلاع المقاومة التحق بالأمير الذي عينه كاتباً له. وقد ترك رسالتين، الأولى سماها "وشاح الكتائب وزينة الجيش الحمدي الغالب"، والثانية ديوان العسكر الحمدي الملياني، "حققهما في كتاب واحد محمد بن عبد الكريم سنة 1968م. يقول أبو القسم سعد الله بالنسبة للرسالة الأولى، أن ابن رويلة لم يقم سوى بصياغة الأفكار والتوجيهات العامة التي أملاها الأمير عليه.

-للمزيد حول الموضوع، راجع: تشرشل: مصدر سابق، ص 52.

(33) الأمير عبد القادر الجزائري: مذكرات، تحقيق: محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر 2010م، ص 168.

(34) بسطا أكثر حول الموضوع، راجع: قدور بن رويلة: وشاح الكتائب وزينة الجيش الحمدي الغالب -ويليه ديوان العسكر الحمدي الملياني، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1968م.

(35) أديب حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2005، ص ص 72، 73.

(36) المرجع نفسه، ص 74.

(37) قدور بن رويلة، مصدر سابق، ص ص 39، 40.

(38) Azan, général Paul, L'Emir Abd-el-kader (1808-1883), du fanatisme musulman au patriotisme chrétien, No I, Paris 1925, p 100-101, p 138

- (39) حرب، مرجع سابق، ص 84.
- (40) إسماعيل العرب: العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر 1982، ص 137.
- (41) أ.ف. دينيزن: الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية، ترجمة وتقديم، أبو العبد دودو، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009، ص 47.
- (42) محمد السعيد قاصري: المساعدات العسكرية المغربية للمقاومة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر 1832-1844م، مجلة عصور وهران، العدد 10، جوان 2005، ص ص 26-39.
- (43) محمد حاج صادق: مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف (دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989، ص 50.
- (44) المرجع نفسه، ص 51.
- (45) محمد بن عبد القادر الأمير الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق: ممدوح حقي، ط 2، دار النهضة العربية للتأليف و الترجمة والنشر، بيروت 1964م، ص 313.
- (46) تشرشل، مصدر سابق، ص 185
- (47) ابن رويلة، مصدر سابق، ص ص 54، 55. كذلك أديب حرب، مرجع سابق، ص 108.
- (48) الشيعة: لغة معناها الوسام. والشيعة المحمدية هي يقطة فضية مذهبة، تتكون من شكل دائري نقش في وسطها: "ناصر الدين" بشكل يد ممدودة الأصابع. وعدد هذه الأصابع تشير إلى عدد مواقف الشجاعة والبطولة التي وقفها العسكري، ويكون عددها بقدر مراتب الضباط.
- (49) ابن رويلة، مصدر سابق، ص ص 48، 49.
- (50) تشرشل، مصدر سابق، ص 191.
- (51) تشرشل، مصدر سابق، ص 192.
- (52) تشرشل، مصدر سابق، ص 186.
- (53) ابن رويلة، مصدر سابق، ص ص 47، 48.
- (54) إسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الجزائر 1984، ص 225.
- (55) ابن رويلة، مصدر سابق، ص ص 68-72. كذلك، حرب، مصدر سابق، ص 123.

- (56) ابن رويلة، المرجع نفسه، ص 123
- (57) نفسه، ص ص 68-72. كذلك، حرب، مصدر سابق، ص ص 124، 125، 126.
- (58) نفسه، ص ص 44-47. كذلك، حرب، مصدر سابق، ص ص 103، 104.
- (59) نفسه، ص 67.
- (60) تشرشل، مصدر سابق، ص 254.